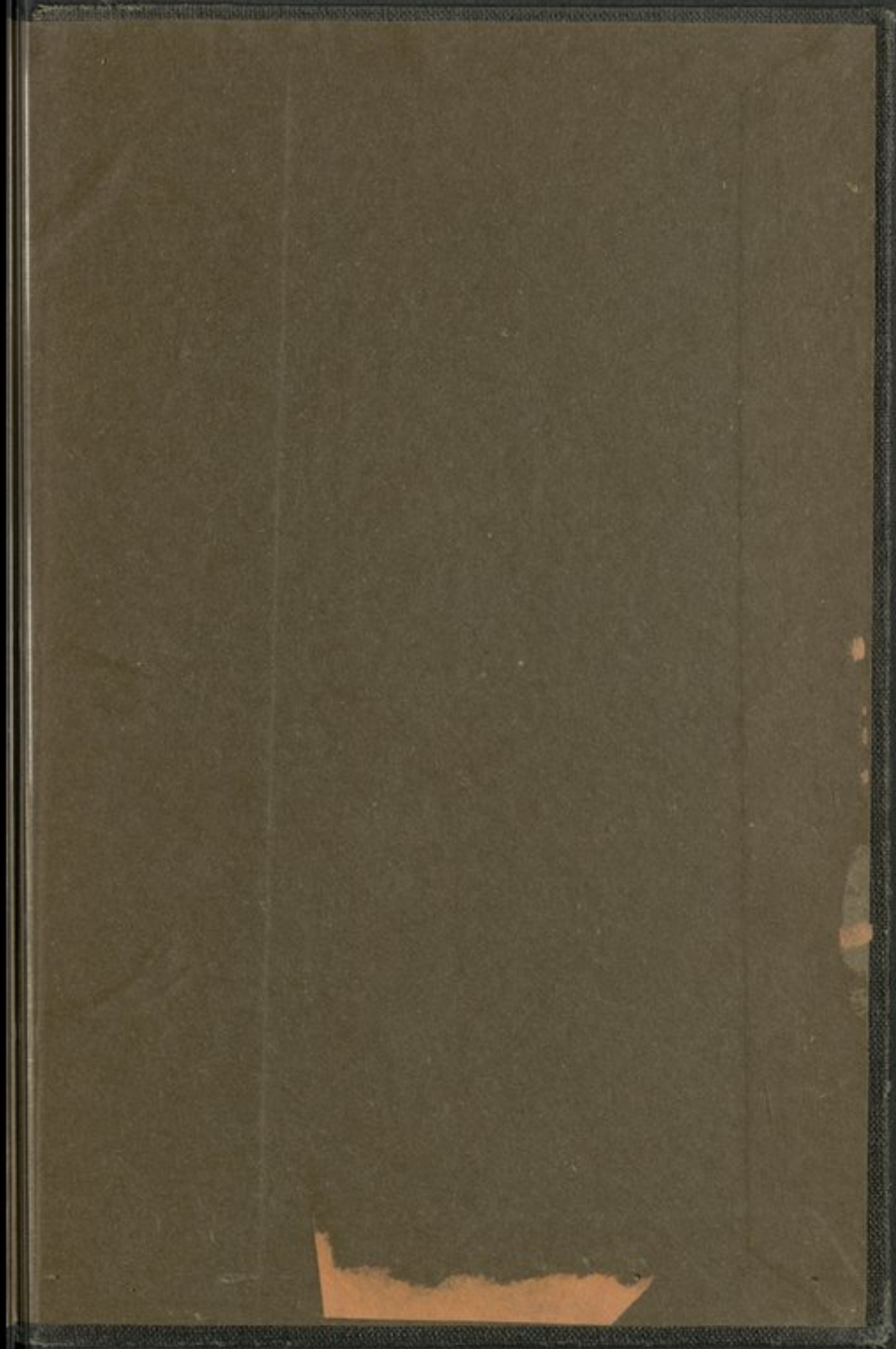
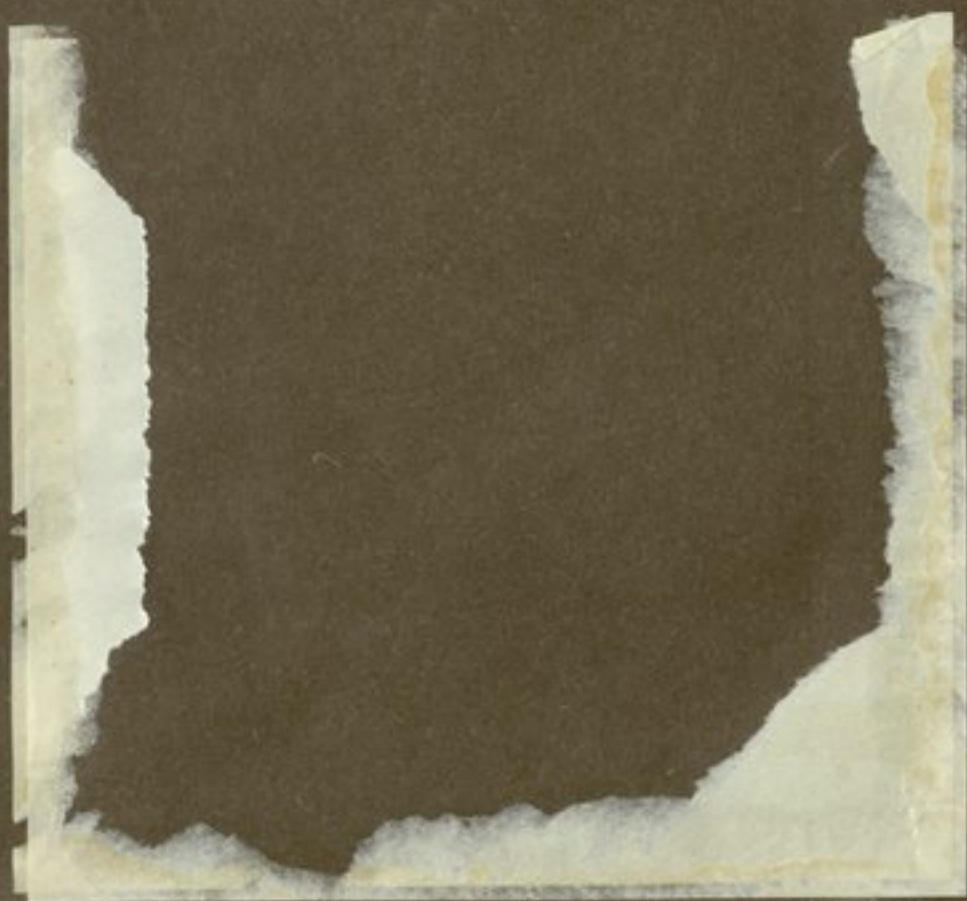
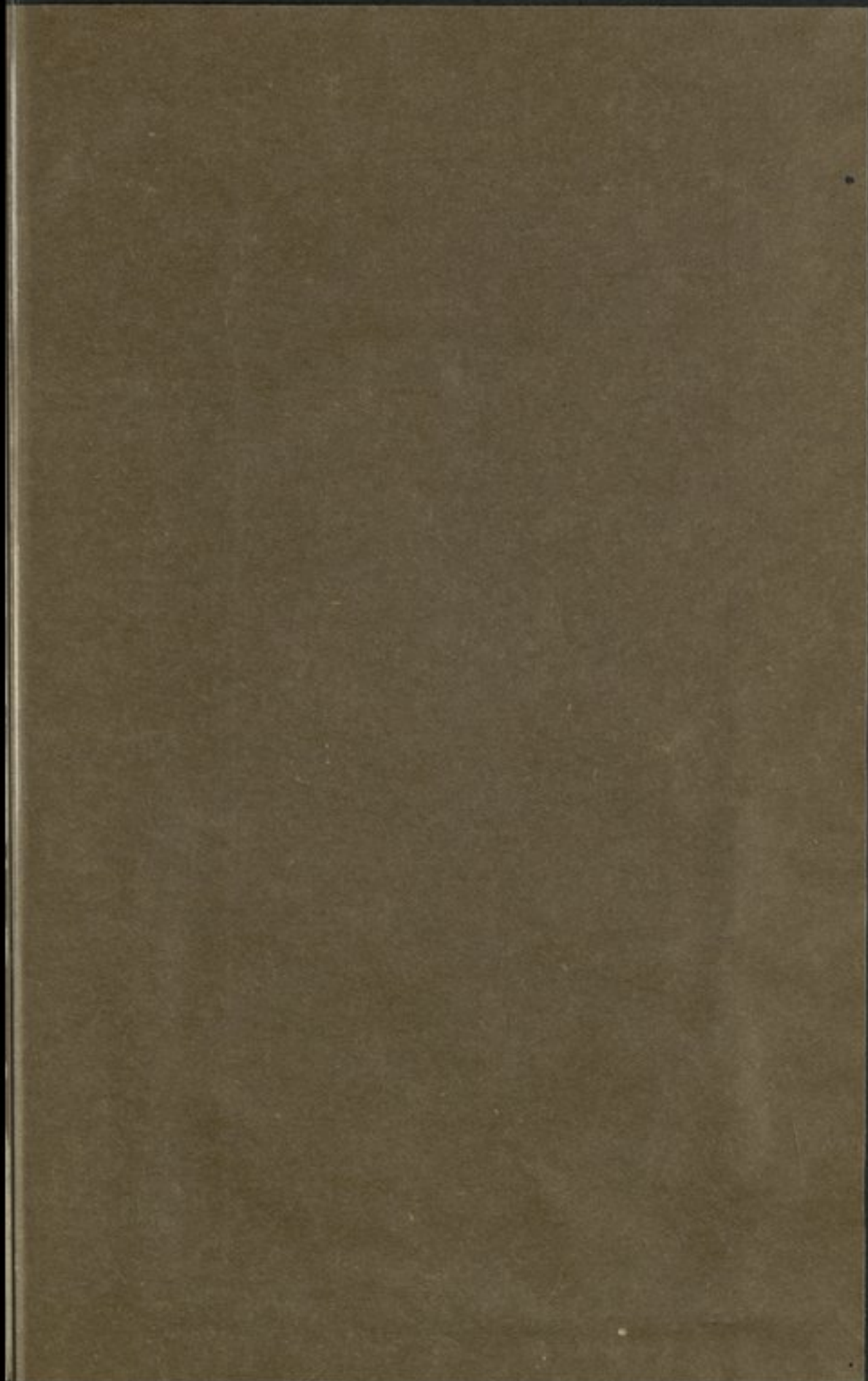


عقيدة الألوهة

أبو شادي







211
A5241 aH
C. 1
أحمد زكي أبو شادي



حَقِيقَةُ الْإِلَهِ

« أجلُّ المذات وأعلامها معرفةُ
الله والنظرُ إلى وجهه ، ولا يُؤثر
عليها لذةٌ أخرى إلاَّ مِنْ حُرْمِ هذه
اللذة »
الفزالي

(ملحق بمجلة « أدبي »)

١٩٣٦

68005

مكتبة البقاع
٣ شارع فرنسا بالاسكندرية

Gift - Author. Cat. July 1948



الى صديقى الحميم
الأديب المتصوّف

محمد لطفى جمعة المحامى

تقريباً لآلعيته ومودته

أبوشادى

التصوف الالهى

« الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلاً » القرآن الشريف

« احذروا فراسة المؤمن فهو ينظر بنور من الله »

« تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا في الله فانكم لن تقدروا قدره »

محمد (ص)

« أنا الحق » — الخلاج

أحبك حبيب : حُبُّ الهوى وحباً لآنك أهلٌ لذاك

فأما الذى هو حُبُّ الهوى فشغلى بذكرك عن سواك

وأما الذى أنت أهلٌ له فكشفك لى الحُجب حتى أراك

فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى ولكن لك الحمد فى ذا وذاك

رابعة العدوية

فلم تهوئى ما لم تكن فى فانياً ولم تفن ما لم ترسم فى صورى

ابن الفارض

لقد كنت فيما مرراً أنكر صاحبي إذا لم يكن ديني الى دينه دان

وقد صار قلبى قابلاً كل صورة فمرعى للغزلان ودير لرهبان

وبيت ليران ومعبد طائف والواح توارى ومصحف قرآن

أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه ، فالحب دينى وإيمانى !

محي الدين بن العربي

كل ذرة فى الوجود تظهر صفة من صفات الله ، لأن هذه الصفات

كانت قد تجلّت ثم حلّت فى هذه الدرات بمقاسير مختلفة ، وهى كمرآة

عنها تنعكس صفات الله . وأما الانسان فهو الذى تظهر فيه تلك الصفات

جلال الدين الرومى

جميعها .



عقيدة الألوهة

(محاضرة فلسفية تصوفية أُلقيت في « ندوة الثقافة » بالاسكندرية)

مساء الثلاثاء ٣ نوفمبر سنة ١٩٣٦)

سأدتى الأفاضل

أشكر لكم تشريفى بالاستماع الى هذا الحديث الذى أوتر أن يكون فى صورة عرضٍ نقدىٍّ وإن كنتُ أفضلُ عادةً الطريقةَ الاندماجيةَ فى بيان المذاهب الفكرية والفلسفية لأنها أوقعُ فى النفس ، غير أنى وقد رأيتُ هذه الطريقةَ غير منصفةٍ لمذهبي وتفكيرى نظراً لعدم اعتيادها فى مصر ، — وإن كان مذهبي الدينى العلمى معروفاً — لم أجد بداً من الركون الى الطريقة النقدية فى هذا الحديث حتى يسهلَ تبينُ ما لى وما لغيرى ، وإن كنتُ أخشى أنى لا أستطيع خدمة موضوع حديثى فى ذاته الخدمة الوافية التى أرى إليها .

إنَّ التعليم الطبى يا حضرات السادة يؤدّى حتماً الى شىء من الصراع مع الدين . وقد لحظتُ منذ نشأتى كثيرين من الأطباء يتزعزع عقائدهم الدينية ثم يتزعزع نهائياً إيمانهم الآسمى . ومنهم من يدعى التوفيق بين العلم والدين ، ولكن اختبار دعواهم يظهر عجزهم عن هذا التوفيق ، وما سبب ذلك إلاَّ ضعف إيمانهم الفطرى وسطحية نظراتهم وفقدان الشجاعة الكافية لايجاد هذا التوفيق المنشود ، مادام الدين ظاهرة اجتماعية كائنة فعلاً وواجبة التقدير .

وقد كان شأنى شأن الجندى الجرىء الذى يحجى الصفوف قد افتقدت الرائد فيتطوَّع مندفعاً للقيام بهذه المهمة التى ربما لم يكن كفواً لها ، ولكنَّ غيرته الفطرية تزجيه وشجاعته تسنده . وكنتُ أجدُ تشجيعاً غير قليل من أستاذى المرحوم السيد محمد رشيد رضا الذى كنتُ أكتبه وأكاتب

مجلته (المنار) حتى إبان إقامتي في انجلترا . وكان هذا الإمام الجليل
يشجعني دائماً وإن خالف آرائي مرات ، ولكنه كان يعنى بجوهر مسعى
للتوفيق الصحيح بين العلم والدين في شجاعة لا تنافي الرشد والاعتزان .

وسأجعل حديثي الليلة متناولاً مسألة المسائل الدينية والصوفية ألا وهي :
« عقيدة الألوهة » ، فأقول إنه لولا إيماني بها لما تحمست متطوعاً هذه
السنين الطويلة للاشادة بها وتفسيرها قدر طاقتي .

وتأذنون لي حضراتكم في ذكر هذه الآيات المعنونة « العطف الإلهي »
من ديوان (الشفق الباكي) فهي من اعترافاتي الوجدانية الصريحة :

وأحسُّ أنني في اندماج دائم بالكون ، والكون العظيم حياتي
أتأمل الساعات في أجرامه وكأنتي متأمل مرآتي
وأنا عطفاً من جميل حنانه يسري إلى رُوحى بغير فوات
حسٌ خفيٌ لست أدرك كنهه وكأنتما هو معجز الآيات
بلغ الضمير ، وكان خير مؤذن بالله في ملكوته لحياتي
وهذا الإحساس هو من دوافع شغفي بعلم الفلك وترددى على المراصد ،
لأنني أجد في ذلك عبادة صوفية واستغراقاً في معاني الألوهة . ولولا هذا
الإحساس لما تأملت وفسرت ، فالشعور الديني ليس عقلياً فحسب بل لابد
له من استعداد وجداني ، وهذا التأمل الصوفي هو ما نفعته الغزالي بالنظر
إلى وجه الله .

إن فلسفة عقيدة الألوهة في نظري مَرَدُّها إلى نتيجة إحساس الجزء
بالكل ، وسأحوني على لغتي الصوفية فلن أجد غيرها مُستعيفاً في هذا المقام .
وإذا توسعنا في هذه النظرة فيُخَيَّلُ إلى أن تمجيد الأبطال متفرع
عنها أو هو صورة منها ، لأن البطولة شمول وعظمة بحيث أن البطل في نظر
مقدّريه - إن لم أقل عابديه - هو رمز للقُدرة الغالبة الفائقة ، وبعبارة أخرى
أنه رمز الشمول . ولذلك نجد تمجيد الأبطال الوطنيين والدينيين وغيرهم يكاد

يبلغ عن غير وعى مرتبة التالية ، خصوصاً اذا كان البطل ميتاً ، حتى ربط بعض الباحثين المتعمقين مثل جرانت ألن Grant Allen والاستاذ هالدين Prof. J. B. S. Haldane نشوء الآلهة عند الوثنيين وظهور القديسين عند غيرهم بعبادة الموتى . ومن العجيب أن النفس البشرية شديدة الميل الى تقديس الموتى والانحراف بذلك انحرافاً عظيماً عن جادة التوحيد والمنطق السليم . وحتى في ضوء الدين الاسلامى الذى يُعَدُّ المثل الأعلى في صراحة التوحيد نزع الدهاء من المسلمين بالرغم من أصوله الصريحة الى تمجيد الاولياء تمجيدهم بخالف روح الاسلام ، مما ألجأ المصلحين أمثال محمد عبده ورشيد رضا والمراغى وسواهم الى محاربة هذه البدع التى تكاد تؤدى الى الاشرار بالله .

من هذا أتقل الى التنبيه الى أن عقيدة الآلهة من الناحية الفلسفية العلمية هي ظاهرة سيكولوجية ، هي إحساس الجزء بالكل ، وهي تتدرج تحت أسماء مختلفة من شعور الانسان نحو وطنه ونحو زعيمه ونحو الانسانية مثلاً الى شعوره نحو الكون بأسره ونحو الآلهة الشاملة والمطلق .

وإذن فعقيدة الآلهة عند معتققيها ليست وهماً حتى ولو كان تفسيرها عند بعضهم وهماً ، فالإحساس بالآلهة قد يكون واحداً (وإن تدرج) عند أصحاب الديانات المختلفة من متمدينين وهمجيين لأنها ظاهرة سيكولوجية متباعدة المنشأ ولكن تفسيرها يختلف بينهم جداً الاختلاف ولو كانوا جميعاً مخلصين في إيمانهم .

يقول الاستاذ برنجل باتيسون Prof. Pringle-Pattison في كتابه (فكرة الله في ضوء الفلسفة الحديثة) The Idea of God in the Light of Recent Philosophy إن إحساسنا بهذه الفكرة دليل على وجود الله ، وهو يعتمد في تدليله على ظهور الغرض في النشوء . وفي رأي العاجز أن هذا التدليل ليس قوياً وإن جاء من أستاذ الفلسفة في جامعة إدنبره ، وكان الأولى به أن يقول إن الإحساس بالآلهة عند أغلبية الناس دليل على فطرية هذا الإحساس وأنه على تكيف هذا الإحساس تتكيف معانى الآلهة التى تختلف جداً باختلاف حسب ثقافة الناس وطبائعهم ومؤهلاتهم وبيئاتهم .

وهذا الأستاذ سورلى Prof. W. R. Sorley أستاذ الفلسفة الخلقية في جامعة كمبردج يرى أن يقرن فكرة الألوهة بالمثالية الخيرية للوجود (راجع كتابه Moral Values and the Idea of God القيم الخلقية وفكرة الله) كما أن الأستاذ أ. ن. ألكسندر Prof. A. N. Alexander يرى أن الألوهة هي مثالية سائرة إلى الكمال !

ومثل هذه النظرات الفكرية لمعانى الألوهة لا تتماشى مع معظم الديانات السائدة التي تنزه الله سبحانه وتعالى عن إيمان الأستاذ ألكسندر على الأقل ، ولكننا مع هذا ليس لنا أن ننكر أن إيمانه في حد ذاته قد لا يقل في حرارته عن إيمان مخالفيه .



إن ما يعنينى من هذا الحديث هو أولاً التلخيص لأحدث الآراء الفلسفية اللاهوتية ثم التعليق عليها بأرائى الخاصة التى تؤيد أن الإيمان بالله يتمشى مع العلم ، على اعتبار أنه ليس سليل الوهم أو الجهل أو الفلسفة الخاطئة . لهذا لن أذهب بعيداً إلى فلسفة أرسطو وما بُنى عليها من التدليل على وجود الخالق فى عالم الكتلكة خاصة ، فلن يقبل العلم ولا الفلسفة الحديثة شيئاً من ذلك . وحتى فى القرن السادس عشر لم تعد انجلترا جمعية للعقلانيين Rationalist Society بين أعضائها كرسطوفر مارلو وولتر رالى ، وقد رفضت الترويج لتلك الآراء السطحية وإن اتسمت بِسِمَةِ الفلسفة ، وكان لدراسات جون لوك John Locke فى سنة ١٦٧٢ للذهن الإنسانى ماقضى على الآراء القديمة اللاهوتية سواء استمدت فلسفتها من أرسطو أو أفلاطون . وقد انتهت أبحاث لوك إلى أنه لا توجد فكرة فى ذهن الإنسانى إلا وكانت مكيفة من الرسائل التى تُدلى بها للمشاعر الإنسانية . وجاء هيوم Hume فعزز اللادريين ثم جون ستيوارت ميل J. S. Mill فلم يحكم بالمعرفة إلا للمشاعر وحدها ثم سبنسر Spencer فصرح بأن القوة

الأساسية للعالم غير معروفة ولا يمكن معرفتها .

وقد أنحفت (لجنة التأليف والترجمة والنشر) قراءة العربية بترجمة كتابين تقيسين أحدهما (عرض تاريخي للفلسفة والعلم) تأليف أ. وولف أستاذ المنطق بجامعة لندن ، والآخر (فلسفة المحدثين والمعاصرين) للمؤلف نفسه ، ففي وسع حضراتكم تصفحها وتصفح أمثالها للوقوف على تفصيل ما أجمله في هذا المقام .

ومن الضروري الإشارة الى ظهور طائفة من الفلاسفة المؤمنين (theistic philosophers) بين الانجليز ، وهم تلامذة الفلاسفة الألمان أمثال كانت ونيت وشلينج وهيغل وشوبنهاور وهارتمان ولوتز ، ولكن آراءهم لم تصمد أمام التقدم الفلسفي العالمي وإن بقيت الآن بعض آراء كانت وهيغل ولوتز في صورة منوعة . وأهم هؤلاء الأعلام بلا جدال هو كانت ، وقد كان — على حد تعبير الأستاذ وولف — شديد الاحترام للنتائج التي وصل اليها العلم الطبيعي ، بحيث لم يستطع رفض كل ما تذهب اليه تلك النتائج على الوجه الذي يدعو اليه مذهب هيوم التشكيكي الذي كان يقول إنه كلما تعمق فيما يسميه نفسه تحبّط وتعثر في بعض الاحساسات ولم يستطع أن يقبض على نفسه أبداً ، وكان يعتبر كل ما يبدو حقيقياً مجموعاً متعديداً من التأثيرات والآراء المتقطعة التي يكتسبها تداعي المعاني مظهر الحوادث المتسلسلة ، ويخيّل لنا أن مادتها ثابتة لخطئنا في الظن بأن التأثيرات المماثلة لتأثيرات سابقة هي بعينها ، وكل ما يوثق به هو تيار التجارب المتغيرة حتى الرياضيات نفسها ليست يقينية ، وأقصى ما يمكن افتراضه لشيء هو الاحتمال . كان الفلاسفة المؤمنون في العصور السابقة يعترضون في التدليل على الألوهة بالطبيعة نفسها وبمظاهر الدنيا في ذاتها ، فعندهم أن الأسباب النانوية تدل على السبب الاول ، وأن النظام الكوني يدل على العقل الغير المحدود ، وأن الجمال في العالم يشير الى الروح الاعلى . ولكن كانت قضى على هذا الطراز من المنطق وأحل في موضعه طرازاً من التعليل العلمي مقسماً معارفنا جميعها الى موضوعية وذاتية في عناصرها .

وينوّه الأستاذ وولف بجدة الطريقة التي اتبعتها كانت دفاعاً عن العلم ،

وهي طريقة « التجريد » التي كانت تطوُّراً بيننا للمذاهب القديمة عن « الأفكار العامة » و « الحقائق الخالدة » و « الآراء المستكنة » ، فقد كان كانت يرى أن موضوعات العلم نتيجة لعاملين : الأشياء المحسوسة وهي مستقلة عن العقل ، وبعض صور وارتباطات يقدِّمها العقل . وهذه الصور الآتية عن الالهام (كالزمان والمكان) والعلاقات والمقولات الفصكرية (كالجوهر وعوارضه ، والعلة والآخر الخ) هي أولية سابقة ، من حيث أنها لا تكتسب بالتجربة إذ التجربة نفسها تستحيل بغيرها . ومن جهة أخرى نجد مادة الحس لاحقة أي أنها تحيى فقط عن طريق التجربة وإن تكن لاتأتى على ما هي عليه بالفعل بل متغيرة بالصور والمقولات السابقة . ولا تصل المعرفة البشرية الى حقيقة الأشياء نفسها بل الى مظاهرها ، واستخدام الصور والمقولات الأولية في كل مايقع في دائرة التجارب البشرية حق مبرر بل هو في الواقع أمر لا مفر منه ، ولكنها يجب ألا تطبق على مايتجاوز تلك التجارب ، فله والحياة الآخرة مثلاً أبعد من متناول التجارب الإنسانية ، وإذن فلا يمكن أن يكونا موضعاً للمناقشة ، فهما لا يمكن إنبائهما ولا نفيهما ، ولا يمكن الايمان بهما على أنهما من الاعتقادات التي تقوم على أسس نظرية بل على أسس عملية . وعلى هذه الاعتبارات العملية بنى كانت الاعتقاد بوجود الله وحرية الاختيار والخلود . فهذه الاعتقادات مسلّمات تحتّمها أصول السلوك العملي المطلق ، كما أن الوجود الحقيقي لعالم الأشياء على صورة ما من المسلّمات التي تحتّمها النتائج النظرية للعلم .

(عرض تاريخي للفلسفة والعلم — ص ٩٨ و ٩٩) .

ولكن هذا التدليل العملي الذي قدمه كانت لم يؤثر الا على قليلين لأن أساسه العلمي ضعيف ، بخلاف تقده للتعلّل الخالص pure reason فقد كان له أثر بليغ على الأفكار في القرن التاسع عشر ، وهكذا اضمحلت آراؤه كما اضمحلت آراء سابقيه ممن لم تصمد تعاليمهم للتطوّر العلمي وحقائق البحث النفساني .

ولا بدّ لنا من وقفة أمام ألمعية الفيلسوف الألماني هيغل Hegel الذي تأثر به أمثال بوزنسكيت Bosanquet وكروتشي Croce ، فقد انتهى هيغل

من تأملاته الفلسفية الى أن العقل والطبيعة المادية هما « المطلق » بذاته لا مجرد مظاهر أو دلائل على مطلق مجهول ، وفوق ذلك فليس العقل والمادة حقيقتين متميزتين ، ولكنها عنصران تتكوّن منها عملية إفصاح المطلق عن نفسه ، وبعبارة أخرى أن الفكر والحقيقة شيء واحد ، وليس ثمة غير حقيقة واحدة هي ما يدعوها « المطلق » ، وان هذه الحقيقة الروحية هي مرادف « الآلوهة » .

ومع كل هذه التفسيرات الفلسفية أخذ الشك أو الالحاد يطرد لأن المتعلمين لا يعينهم أقل من الايمان بأن خلف هندسة الوجود عقلاً إلهياً منظماً ضابطاً ، وعلى وجه هذه الطبيعة المسحة الإلهية البارة ، فاذا لم يوقفوا بذلك انتفى إيمانهم حتماً .

وازدادت العلوم تقدماً فازداد الايمان تضاعفاً بين المتعلمين ، لأن التعليل العلمى للآلوهة أخذ ينهزم ، واكتفى المتفلسفون بالكلام عن « الحاسة الدينية » religious sense كبرهان وجداني على وجود الله ، وما يعنون بذلك الا مزج العاطفة بالعقيدة الموروثة ، وما كانت العاطفة في اعتبار السيكولوجيا برهاناً إيجابياً على وجود الشيء .

أما في أمريكا ففلاسفتها الذين يُعَنَوْنَ بالديانات يصرون إماً بأن العقيدة الإلهية ليست عنصراً ضرورياً من الدين ، أو بتصويرها مطابقةً لمثالية أو لفكرة مجردة أو لروح مبهمّة للعالم (راجع كتاب Contemporary American Philosophy الفلسفة الأمريكية المعاصرة في مجلدين ، ومؤلفات جوزيف ماكابي) . وأما في الفلسفة الانجليزية فلدينا الاستاذ تيلر Prof. Taylor يعلن بوضوح أن الفلاسفة المتدينين يرفضون الآن في جملتهم التعليل من نظام الوجود وجماله وقانونه وهندسته الطبيعية ويؤثرون الاهتمام بما ينعتونه « القيم » Values أو « المثاليات » Ideals معتبرين هذه القيم جوهر الأشياء ، قائلين إن العقل في حالة خاصة من حالاته أشبه بحالة الصوفيين (أى بنوع من الكشف والشهود) يرى « الحقيقة » « والقيم » شيئاً واحداً . والاتجاه الفلسفي الحديث عند هؤلاء أميل الى اعتبار « القيم العليا » عينيّة أكثر منها معاني نفسية أو عقلية ، ولو

أن الفلاسفة مختلفون في تفسير معنى « العينية » التي توصف بها هذه « القيم ». وأما فكرة الألوهة الكلاسيكية فضائعة وسط هذا التفكير ضياعاً تاماً .

وهذا الأستاذ كار Prof. H.W. Carr في كتابه (الأرضية المتغيرة للدين والأخلاق - Changing Backgrounds in Religion and Ethics) يدعى أن الرياضيين والطبيعيين يبحثونهم قد جعلوا من الصعب المزداد عسراً تعيين مكان الله في تنظيم الكون وهندسته ! أما الأستاذ برنجل باتيسون Prof. A. S. Pringle-Pattison فقد أشرت إلى وقوفه عكس هذا الموقف إذ يدل على وجود الله بمحض إحساسنا بفكرة وجوده ! وعندى أن كلاهما مخطئ لأن أساس بحثهما في ذلك وهمي على ما سأبينه بعد .

وليس شك في أن عدد العلماء الذين يؤمنون بالألوهة العرفية الآن أقل من عددهم منذ ربع قرن مضى ، وليس بينهم أحد من نوابغ العلماء المنتسبين للجيل الجديد مثل جوليان هكسلي Julian Huxley أو اينشتاين Einstein ، فإن هؤلاء ينظرون إلى الألوهة نظرة « تصوورية » منالفة تخالف العرف تمام المخالفة .

كذلك ليس شك في أن أنصار الفلسفة المادية لم يقلوا في هذا القرن عدداً عن أمثالهم في القرن الماضي ، وما رأى هيكسل Haeckel في كتابه (لغز الوجود The Riddle of the Universe) الذي عزّزه بخنر Buchner عن أن المادة والطاقة هما واجهتان للمجهول إلا مقدمة التنبؤ عن الحقائق الطبيعية التي كشفها القرن الحاضر والتي زادت الفلسفة المادية تمكيناً وإن لم تكن هذه الفلسفة مرتبطة بأية نظرية بالذات .

وكثيرون من هؤلاء الماديين يرون أن التفاعلات الكونية لا تُشعر بوجود إله على الإطلاق سواء من بداية الشد من نشوء الكواكب إلى بلوغ الإنسانية منزلتها الحاضرة الممتلئة بالتناقض والمفاسد كما يعتقد أولئك الماديون .

وقد نشأ عن سريان هذه الحركة قيام مثل الأستاذ هفدينج Prof. Harold Hoffding (وهو فيلسوف دنمركي متشكك) بالدعوة منذ

رابع قرن الى الاهتمام « بالقيم » بدل « الحقائق » ، وبعبارة أخرى أنه يرى الاحتفاظ بالدين لصفاته الخلقية والعاطفية وبذلك وضع فكرة الله في موضع ثانوى أو طرحها كلياً . وقد أشرت الى قيام فكرة « المثالية » أو « التصورية » Idealism في أمريكا مقام فكرة الله العرفية . وعلى هذا النحو ينحو ولز H. G. Wells والأستاذ وُدز Prof. R. S. Woods الذى يجهر بأنه يعدّ الألوهة مرادفة للروح الاجتماعى الممثل «the personified social spirit» وهناك طائفة من الفلاسفة المحدثين أمثال الأستاذ أَمز Prof. Ames والأستاذ أوفرستريت Prof. Overstreet ترى أن الله هو صورة ملايين البشر ، وأنه كائنٌ حتى يمثل خيراً ما فى البشرية . وعلى هذا القياس يمكننا بسهولة أن نوافق جوزيف ماكنابى على قوله إن ثمة ما لا يقل عن عشرين إلهاً مختلفاً للأديان الفلسفية ، كما أن ثمة نظير هذا العدد للأديان الأخرى !

وكما أنه لا يخطر فى بال أحد الآن فى البيئات الثقافية العالية أن يستدل على وجود الله من مجرد وجود النظام أو العدل أو الجمال فى الوجود ، فكذلك لا يحلم أحد بهذا الاستدلال من مجرد الاحساس الدينى ، لأن العقيدة الدينية مغروسة بحكم البيئة والوراثة وتزيدها العواطف حرارة وحماسة . كذلك لا تحس البيئات العلمية بالحاجة الى العقيدة الإلهية ، وتؤمن بأنه لو أغلقت أماكن العبادة عشر سنين مثلاً واختفى رجال الدين هذه المدة لما أحسّ بذلك أحد ، ولنشأ جيلٌ جديدٌ لا حاجة له بغير القوانين الحكيمة والنظم الاجتماعية المفيدة ، ولا هم له إلا نشر العدل والاخاء والسعادة بين الناس ، ولما فكر أبداً فى معنى الله بل لاستغرب لهذه الفكرة عندما تعرّض عليه ... والواقع أنه حتى فى هذا الجيل تثبت إحصائيات الكنائس أن ثلثي من ينتسبون الى المسيحية هم عملياً بعيدون عنها ولا صلة لهم بأية كنيسة ، ومع هذا لا يمكن مطلقاً لأى بحاث اجتماعى أن ينكر أن الانسانية الحاضرة سامية فى أخلاقها وإن كانت غير متمسكة بأديانها الموروثة ، وإنما ينصب تمسكها على الاستفادة من تجارب الحياة التى تعتبرها مصدر إلهامها الوحيد الجدير بالاحترام .

يقول جوائز هوايت A. Gowans Whyte فى كتابه (ديانة العقل الحر) —

(The Religion of the Open Mind) إنَّ الآدابَ جزءٌ صميمٌ من قصة النشوء ، حينما الديانة على العكس منشؤها الخوف ، وقد وُلدت في بداية التنبُّه الذاتى حينما بدأ الانسانُ يتحسَّس كالأعمى في تيهٍ من الخرافة . وإنَّ الخوف من الخافى المجهول هو شعلةٌ جميع الأديان ، فإذا ما طرح الانسان هذا الخوفَ جانباً فإن ذهنه حتماً ينقئ ... ومثلُ هذا الرأى فلعنه عند الأستاذ هالدين J. B. S. Haldane في كتابه (الحقيقة والعقيدة Fact and Faith) كما أنَّ لالدوس هكسلى Aldous Huxley فصلاً بليغاً في كتابه (دراسات لاثقة — Proper Studies) عن « أبدال الديانات » substitutes for religion أشار فيه الى انحطاط الدين في الغرب والى قيام حركات وطنية وسياسية واجتماعية وفنية وغيرها استوعبت اهتمام الناس الى حدٍّ كبيرٍ أو صغيرٍ واقترنت بشيء من الطقوس التى ألقوها فى الحركات الدينية فأشبعتم مشاعرهم بدرجات مختلفة ، فلا غرابة بعد ذلك اذا اشتدَّ انصرافُ الناس فى الغرب عن الديانات الموروثة وحتى عن العقيدة الالهية فى ذاتها .

سادتى الأفاضل

لقد عرضتُ على حضراتكم إمامةً عن اتجاه التفكير الحديث فى الغرب بشأن عقيدة الألوهة . أمّا رأى الشخصى فى هذا الموضوع فقد أسلفته من قبل وإنَّ يكن فى إيجاز ، وقد نُشر فى رسالة لى بعنوان (مذهبي) . ولما كنتُ عميقَ الإيمان راسخَ العقيدة فأننى بكلِّ ارتياحٍ لبَّيتُ دعوتكم للافاضة بهذا الحديث وزيادة البيان عن دخيلة نفسى ازاء هذه التيارات المتضاربة .

وأنى أكرّر لحضراتكم أيها المادة أن الشعور بالألوهة فى اعتبارى ليس مسألة خوفٍ أو جهلٍ على ما يرى بعضُ المفكرين الغربيين بل هى مسألة فطرية سيكولوجية مَبْعَثُها إحساسُ الجزء بالكلِّ ، وهل نحن فى المعنى التصوّفى الـ « أبناءُ الله » ؟ ولولا هذا الاحساس لما قال الخلاج كلمته المشهورة التى أودت بحياته ، لأنَّ يَبْتَسُّه لم تفهمها فأساءت تأويلها وجنت عليه شرٌّ جنائىة .

أمّا عقيدة الألوهة الخاطئة في بعض الأديان فقد تكون ناجمة عن خوف أو جهل ، ولكن لا شأن لي بمثل ذلك ، إذ إنّما أتكم عن الاحساس الأصيل لا عن التقليد الموروث .

ويطيب لي تكرار الإشارة في حديثي ومحاضراتي الفلسفية الدينية إلى آية الكرسي المعدودة من جواهر القرآن الشريف ، فإنّ هذه الآية الكريمة في نظري مفتاح التصوّف الاسلامي وباب الألوهة الحقّة ، ولو أن الاسلام تقليدياً معدوداً بمعزل عن التصوف . ولكن هذه الآية تملّؤني إحساساً بوحدة الوجود ، واعتقاداً تاماً بأن الاسلام لا يفصل بين الله والعالم كما تفعل بعض الأديان ، وقد كان نبينا عليه الصلاة والسلام يتكشف ويتصوف معترلاً في جبل حرّاء عابداً الله في ملكوته .

فعقيدة الألوهة في ضوء الاسلام لا تخالف العلم السليم ولا الاحساس النفساني النقي ، وهي بعيدة كل البعد عن الخوف أو الخرافة أو الجهل لأنها تقوم على ركنين أولهما الاحساس الصوفي الفطري : إحساس الجزء بالكل ، وثانيهما وحدة الوجود التي تشعّ عليها آية الكرسي فتظهرها لنا بكل وضوح . ومن الآيات القرآنية التي ينبع منها التصوّف قوله تعالى : « فأينما تولوا فثمّ وجه الله » (سورة البقرة آية ١١٥) وقوله : « وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعاني » (سورة البقرة آية ١٨٦) وقوله « الله نور السموات والأرض » (سورة النور آية ٣٥) فهل لنا نحن المسلمين بعد ذلك أي حاجة بذلك النقاش البيزنطي بين المفكرين الغربيين الذين تجاهلوا الاعتبارين السالفين وحصروا تفكيرهم في نواح بعينها ؟ ثمّ أليس فيما عرضه بعضهم من تفاسير مثالية ونحوها ما يندمج في الركنين السالفيين الذكر ؟

إنّ تأملاتي ودراساتي الطويلة تجعلني أعتقد أنه لا يمكن التخلّي في النفس البشرية عن عقيدة الألوهة ، وإنّما من الجائز تحويل هذه العقيدة وقتياً أو تعويضها (كما أشار إلى ذلك ألدوس هكسلي) تحت تأثير الحيرة أو الضغط الاجتماعي أو نحوه . ولعلّ بهذا البيان قد أفنعت حضراتكم أن الإيمان الالهّي لا يتعارض بأيّ حال وتفهم قوانين الحياة واستلهاها لخير

الإنسان ، بل أرى أن الأسماء والصفات المنسوبة الى الله سبحانه وتعالى هي في الواقع رموزاً الى العوامل المختلفة التي أطلقها في هذا الوجود لتكييفه وتنظيمه بين هدم وبناء وتبديل وتحويل على قاعدة الأسباب والنتائج ، وكثير منها رموز لا يجوز أن تُسمى تفسيراً . وظاهرة « النبوة » ذاتها خاضعة للحقائق العلمية النفسية كما أوضح ذلك فيلسوف الاسلام الفارابي .

ونحن إذ نبتهل الى الله سبحانه وتعالى وإذ نصلي يجب أن نعلم أن الله جل شأنه ليس بحاجة الى شيء من ذلك ، فإن الزهو صفة آدمية وليس صفة ربانية ، وإنما نحن المستفيدون من الابتهال والصلاة لأن في ذلك تقوية معنويتنا وإشعاراً لنفوسنا بالواجب علينا . وقد تعالى الله عن أن يبدل قوانين الوجود الدقيقة التي سنّها لنظامه البديع إكراماً لمخاطر أحدنا إذ معنى ذلك اضطراب الوجود بل خرابه ، وإنما نتيجة الابتهال والصلاة تقوية احتمالنا وتهذيب مشاعرنا وشحن تفكيرنا لما فيه الخير والصلاح حسب نوااميس الوجود لا خلافاً لها . وحتى ما نسميه الحظ إنما يتبع قانون الأرجحية law of probability ، وكلما اتسع نطاق الكشف العلمي ازداد إيماننا بصيرة بمعاني الألوهة السامية وقوانين الحياة ونظام الوجود . كما أن الاشراق الصوفي و « لذة الأُنس بالله » ليس خلفهما سوى التأمل الكوني العميق وإرهاق الاعصاب وتقوية الحُدى ولا يمكن إدراك الله سبحانه وتعالى إلا بالحس الصوفي الذي يسنده العلم الفلسفي لا بالعلم ولا بالفلسفة وحدهما . وقد يساعد كل أولئك على قراءة الأفكار وتقدير العواقب لا على مجرد النبؤ بالمستقبل والكشف والالهام مهما كان التوغل في التأله .

كثيراً ما ذكرتُ في أحاديثي الدينية أن الاسلام يعتمد أساسياً على التقوى والعلم ، وإذا كان اخواننا اليهود بالرغم من روحهم المحافظة لم يترددوا في تفسير التوراة تفسيراً علمياً ، فما أحرانا نحن بذلك وهذا كتابنا يوحى بالتفكير والتأمل في كثير من آياته .

وهذا القرآن الشريف في جميع أجزائه يتسمششى مع العلم الصحيح لمن أراد أن يفهمه على هذا الوجه من ذوى الألباب ، وإن فهمه العامة غالباً فهماً آخر بالنسبة لرموزه الدقيقة وذلك على قدر عقولهم . بل كذلك الكتاب المقدس قابل للتفسير العلمي الشامل وقد وفّق الى ذلك علماء

الغرب اللاهوتيون توفيقاً عظيماً ، فقيرٌ معقول أن يكون القرآن الشريف
دونه صلاحيةً لهذا التفسير الذي يجب أن يشمل كلَّ شيء من عرفان صفات
الله تعالى الى جميع الشؤون الانسانية . والمعرفة الصحيحة تأتي عن طريق
البحث العلمي والتذوق لفلسفة الدين لا عن طريق الإِشراق وحده ولو كان
صاحبه السهروردي . أقول هذا وأنا أعرف قدرَ التصوف كما أسلفت .

ليس الإحساس بوجود الله دليلاً على وجود الله كما يدعى الاستاذ برنجل
باتيسون من ناحية المنطق ، كذلك ليس التدليل على أن لكل شيء صانعاً
ما ينتهي بنا الى إثبات الخالق ، وإن توهم ذلك كثيرون من المعلمين في
تأليفهم المدرسية المفسدة لأذهان التلاميذ إذ لا بد لهذا المنطق الغريب من
أن يؤدي الى سؤال كُفّر عن الصانع نفسه ! ولا قيمة الآن لحجج أهل
الظاهر الذين طالما ابتلى بهم وبمجمودهم الحكماء والعلماء في سالف العصور .

إن صفات الله المكشوفة لنا ليست جميع صفاته تعالى بل لعلها لا تتعدى
صفات العوامل الكونية الضابطة للوجود باعتبار هذا الوجود كائناً
دورياً ، ومظاهر الطبيعة جميعها وحقائقها متمشية مع تلك الصفات
أو العوامل . والطريق العلمي الممهّد لتعريف الألوهة هو الطريق
السيكولوجي لأنه حقيقة واقعة فطرية ليست بأى حال نتيجة الوهم أو الجهل ،
وأعني به إحساس الجزء بالكل واختذابه اليه . ولعل هذه الظاهرة ،
ظاهرة الإحساس بالألوهة ، هي التي أوحى الى الجنرال اسمطس General
J. C. Smuts مذهب فلسفة « الكل » الذي يفسّر ما يسميه العلماء بالتطور
الابداعي أو التطور الفجائي في الوجود مما يتعارض مع نظرية الميكانيكية
البحثة في الطبيعة ، وعنده أن العالم بأسره مدفوع بطبيعته الى الانحراف عن
الميكانيكية البحتة ، ومتجه نحو تكوين « الكل » ، وهذا هو المثل الأعلى
الذي يسعى العالم بأسره الى تحقيقه ، وتحقيقه تتحقق منه غايته . وإذا كان
هذا الاتجاه نحو تكوين « الكل » أمراً مُشاهداً ، في جميع أنحاء الكون
على اعتبار أن في طبيعة الأشياء نزعة متّجهة على الدوام نحو تكوين هيئات
منتظمة يسمّى كل واحد منها « كلاً » ، فلعلّه مما يقنع بعض الماديين
بهذه الجاذبية الطبيعية التي أثرت اليها والتي أعدها رمز الإحساس بالألوهة

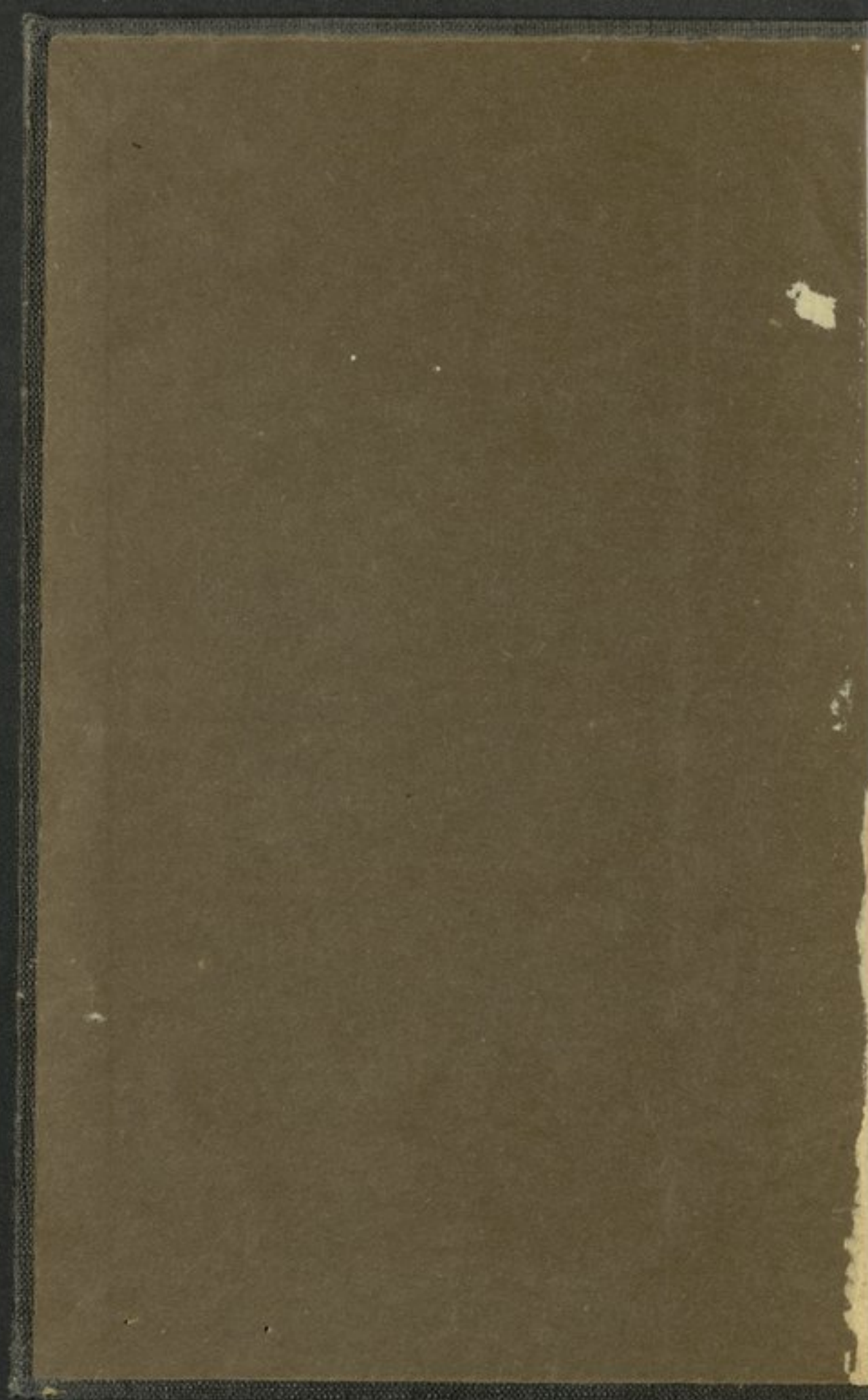
ولذة الانس بالله التي لا تعادلها لذة ، كما يقول حجة الاسلام الغزالي بعد
تصوّفه .

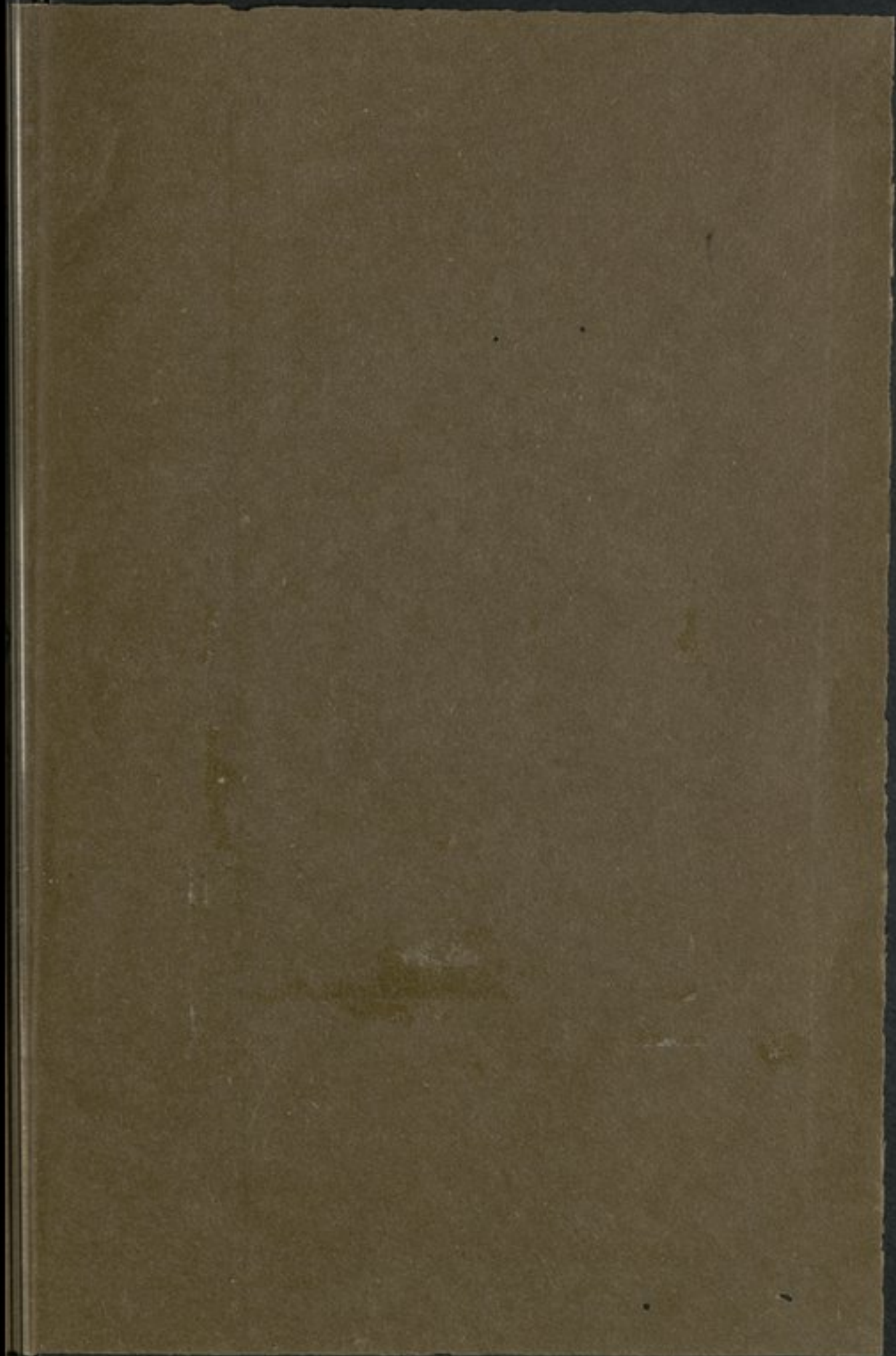
يقول شاعر أمريكا الفيلسوف ج . سنتيانا G. Santayana إن الدين
قصة "خرافية" ابتدغها الضمير ، ومع ذلك فهو في الوقت ذاته صاحب
فلسفة واقعية نقدية ، وقد أطلق على الصُّور الذهنية والأفكار وغير ذلك
اسم « الماهيات » essences أو الجواهر . وعلى هذا فكل ما يصوره الحس
من الصُّور المعهودة لنا وكل النظريات العلمية والمعتقدات الدينية إنما هو من
هذا العالم ، عالم الجواهر . ويمكن اعتبار هذه الأشياء كلها - أي النظريات
العلمية والمعتقدات الدينية الخ . - أساليب مختلفة ، وإن كانت غير متناقضة
للتعبير عن حقيقة واحدة فوق طور الإدراك .

إن معظم الذين حاولوا التوفيق بين العلم والدين قد فشلوا فشلاً ذريعاً
لأنهم لجأوا إلى أساليب تعسفية ، وقد حاولت أيها السادة في هذا الحديث
أن أبسط لحضراتكم مثلاً لما أرجو أن يكون توفيقاً ناجحاً في مسألة
المسائل الدينية والتصوفية متخذاً من علم السيكولوجيا مفتاح تفسيرى ،
مبتعداً كل الابتعاد عن تعقيد هذه القضية الوجدانية ، فلعلى أصبت بذلك
وليس لأمري إلا مانوى .

وأخيراً أشكر حضراتكم رعاية صدوركم وحسن استماعكم وهذه العناية
الجديّة بالبحث والتأمل ، فإن كل هذا يتفق وتقاليد الاسلام السمحة في
أنضر عصوره ، وما أولانا بهذه الصفات في هذا العهد الجديد السعيد ،
عهد الحرية والاستقلال والثقافة الذي سماء دولة الرئيس الجليل مستبشراً
« عهد فاروق » .







ابو شادي، احمد زكي

عقيدة الألوهية

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01252661



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

211
A5241aA
C.1